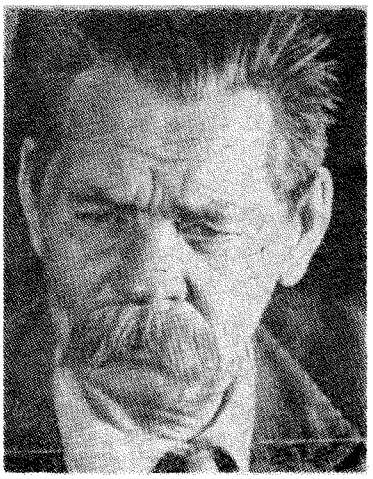

« الأم » بين قصص غوركي

بقلم أحمد محمد عطية

« لقد أثبت جوركي كيف اشتد التوتر عند الجماهير وعند ملايين الافراد ، حتى أصبح أمرا ليس الى احتماله من سبيل. وفي روايته « الام » ـ وهي أعظم مؤلفاته ـ نستطيع أن نرى أكثر الناس بساطة من الفلاحين والعمال والجهلاء والاميين ، يجمعون ويبذلون تضحيات لا حصر لها قبل أن ينطلقوا كالعاصفة ... »

« ستيفان زفايج »

لا يعتبر البعض رواية جوركي الشهيرة « الأم » عملا روائيا فنيا، وانما هي في نظرهم شيء مذهبي أشبه بمجموعة صرخات أو خطب دعائية ، بينما يعدها المؤمنون بالتزام الاديب ، خير مثال لما يجب أن يكون عليه الادب في سبيل المجتمع ، وقد خبر جوركي الحياة الروسية، أو على الاصح قاع الحياة الروسية ، كما يحلو للبعض أن يسمي حياة العمال والفلاحين في مجتمع تحكمه الرجعية ، مجتمع ما قبل الثورة ..

وجوركي ليس كاتبا رومانسيا ، ربما كانت شطحاته الاولى وهو لم يزل يحبو في عالم الادب أقرب للرومانسية . فجوركي عاش الواقع وعاناه ، لذا فهو يرسم صورة دقيقة للواقع الروسي بأدق تفاصيله، وقد بلا الحياة في روسيا القيصرية ، وآمن بعد طول تقلب في الافكار والمبادىء ، أن الاشتراكية هي الحل الحتمي والطبيعي الوحيد لتقدم الشعب الروسي ونيله حقوقه . وأن دور الاديب الثوري هو أن يضع هذه القضية نصب عينيه ، وأن يظل في ثورة دائمة ، مهما براخت عزيمة الجماهير ، ومهما فويت قبضة الرجعية ، لقد وصل مع غيره من مثقفي روسيا الثوريين الى اقتناع كامل بأن حكم القيصرية انما هو حكم ضد الشعب ، وأن الشعب يجب أن يتولى زمام أمره ، وليس هناك طريق اخر غير الاعداد لليوم الذي يطوحون فيه بحكم القيصرية الظالم ، ولهذا فان واقعية جوركي شيء جديد على الواقعية في الادب العالمي .. فقد اعتاد الكتاب الواقعيون قبل جوركي وبعده أن يقفوا في مواجهة الرومانتيكية، وينقلوا لجماهير القراء صورا طبيعية لما يحدث في الحياة، صورا وردية ، وصور سوداء .. ولا شيء أكثر ، لان قضايا شعوبهم لم تتمثل أمامهم ممكنة الحل ، ان جوركي أديب منظم بحق ، وهو واقعي لانه ابن الحياة حقا ، فقد عاشها طولا وعرضا ، وهو اشتراكي يؤمن بالحل الاشتراكي لمأساة شعبه ، ويؤمن بدور الادب الهام في انارة الطريق امام الجماهير ، انارته بالصورة الواقعية وبالهدف المأمول . وفي ضوء هذه الخطوط الرئيسية لادب جوركي ، تدلنا روايته « الام » على صدى التزامه بها ...

كتب جوركي هذه الرواية في أعقاب ثورة الشعب الروسي سنة ١٩٠٥ التي انتكست كمثيلتها ثورة سنة ١٩١٩ في مصر ، مع اختلاف الاسباب والاهداف ، واذ تنتكس الثورة تسري الروح الانهزامية بين الناس ، وتمتليء نفوسهم باليأس في امكانياتهم وقدرتهم على القيام بثورة جديدة ، بينما تنهال الرجعية في محاولات يائسة للقضاء على فلول الثورة المنهزمة مستغلة كل ما تملكه من أجهزة لارهاب الشعب ولتثبيط همته .

وقد كتب هذه الرواية في اميركا ، بعد فراره خلسة عبر الحدود الفنلندية . في سنة ١٩٠٦ بالضبط نشرت « الام » مسلسلة لاول مرة، على صفحات صحيفة امريكية ، ثم جمعت في كتاب صدر في نيويورك ولندن ، وسرعان ما تلقفتها الصحافة الالمانية والفرنسية والايطالية، الثورية ، وطبعتها في ملاحق مستقلة بملايين النسخ . ولكنها لم تنشر في روسيا الا في عام ١٩٠٧ ، حيث نشر الجزء الاول منها وصادرته الرقابة القيصرية ، وقالت عنها الرقابة في تقريرها « أنها تحث على ارتكاب جرائم شنيعة ، وتؤلب العمال على الطبقات الحاكمة ، وتدعو الى الفتنة والعصيان .» ، وكانت مصادرة الرواية ايذانا بنشرها كلها وتوزيعها سرا . فسرت روحها بين الشعب الروسي ، مسرى النار في الهشيم .

وفي رواية « الام » صور غوركي أجهزة الارهاب المتشعبة التي تملكها القيصرية ، ولكنه أوضح أيضا مدى صلابة المناضلين الثوريين في مواجهة هذه الاجهزة المتعددة القوية ، وان كل ضحية تسقط ، تزيد من التهاب حماس الجماهير للثورة . ان « بافل فلاسوف » عامل بسيط جاهل، كاد ينقاد الى الهوة التي تبتلع الشباب الروسي في سن المراهقة، الخمر والانحلال ... ولكن حنان امه « بيلاجيا نيلوفنا » ، يعيده الى صوابه فيختار طريق الثورة ، واذ اختار هذا الطريق بدأ « يتخلى عن الالفاظ الجافة التي كان يستعملها في الماضي .. فهو لا يتأنق في ثيابه ، انما يهتم أكثر فأكثر بنظافة جسمه وهندامه ، وأصبحت حركاته أكثر جدية، وسلوكه أبسط وأقل غلظة ، وتغيرت أخلاقه نحو أمه ، فكان ينظف الارض في بعض الاحيان ، وينظم سريره ايام الاحاد، ويحاول بكافة السبل أن يساعدها في أعمالها .. » ، وهذه اخلاق الثوري كما يراها جوركي، والناس يعيشون في رواية « الام » كما في سائر قصصه ، كما في الحياة ذاتها ، يبصقون ، ويسبون ، ويضربون بلا رحمة . وهو يرجع قسوتهم الى قسوة حياتهم ... قال بافل لامه « فكري في الحياة التي نعيشها. ها أنت بلغت الاربعين من عمرك ، فما الذي عرفته ؟ ، كان أبي يضربك ، وأنا أدرك الان انه كان ينفس عن متاعبه فيك ، كل مرارة حياته . كان هناك ما يضغط عليه ويرهقه باستمرار دون أن يدري من أين يأتي، لقد كان يعمل كالعبد طوال ثلاثين عاما ـ بدأ يعمل والمصنع عمارتان ، اما الان فيتكون المصنع من سبع عمارات » . وتتردد في سطور الرواية عبارة « ان الخوف هو الذي يدمرنا ، ورؤساؤنا يستغلون خوفنا ، فيستمرون في استعبادنا » . كلها عبارات تستنكر الخوف ، وتستبعده من ثنايا المعركة .

ولكن واقعية جوركي فيها اختلاط بالرومانسية ، انظر الى تلك الفتاة « ناتاشا » ، انها ليست من الحضيض الروسي ، ولا تقاسي ـ بحكم وضعها الطبقي ـ من مظالم المجتمع الروسي ، بل هي بانتمائها الى طبقتها ألد اعداء الثورة والعاملين من اجلها، فابوها رأسمالي يمتلك أسهما في مصانع الحديد ، وعقارات عديدة ، وكانت تعيش لذلك حياة

هانئة تجد كل ما تطلبه وتشتهيه ، ولكنها مع كل هذا ، تركت هذه الحياة الهنيئة السهلة ، وراحت تسير عشرات الكيلومترات على قدميها لتشارك في الاعداد للثورة ضد النظام القائم ، نظام ابيها . انه ناواقعيا وماديا عدوة الثورة ، ولكنها تؤمن بفكرة الثورة رومانسيا ، تؤمن بحق هؤلاء الجياع في الطعام والحياة المتكافئة ، انها تشعر بطيبة الكادحين الفقراء، ان حياتهم صعبة والفاظهم كذلك ، لكن قلوبهم طيبة ، لا يعرفون نفاق البورجوازية . و « ساشا » ابنة احد الاقطاعيين كبار ملاك الاراضي ، انها تترك اباها وطبقتها ، وتشارك العمال حياتهم المتقشفة وثورتهم ... والحب بين الفتى الاوكراني « اندري » و « نتاشا » ، وبين « بافل » و « ساشا » حب عجيب ، يستنكره الجميع ، حتى المحبون انفسهم ، انهم لا يعترفون الا بحب واحد ، حب القضية . ولا يجب ان يقف اي حب فردي في طريق حب المجموع وخيره . فتقول الام « ان حبنا النسوي ليس حبا نقيا اننا نحب ما نحتاجه لانفسنا .. ! كل هؤلاء الناس يتألمون من اجل الاخرين الذاهبين الى السجن والى سيبريا ، ويموتون. وفتيات صغيرات يمشين في الليل بعيدا جدا ، عبر الوحل ، عبر المطر والثلج . سبعة فراسخ من المدينة لبيتنا .. من يدفعهم الى ذلك ؟ ولماذا يفعلونه ؟ لان لديهم حبا عظيما نقيا ، ولان لديهم الايمان ، الايمان العميق ... وهذا الحب القوي يجعلهم يشعرون بان فترات السجن ليست سوى «اجازات دورية اجبارية» للاستجمام والدراسة . والايمان بقدرة الانسان وتحكمه في مستقبله عند غوركي تدلنا عليه هذه العبارة « ان الافا من الناس تستطيع ان تعيش افضل مما تعيش لو ارادت هي ذلك. ولكنها تستمر في العيش كالوحوش ، لا بل انها لتظن ان تلك حقا معيشة رائعة . اليوم يعمل المرء ويأكل ، وغدا يعمل ويأكل ، وتمضي كل ايام حياته ، وهو يعمل ويأكل فقط . ما الذي يثير الاعجاب في هذا ؟ انه ينجب بين الحين والحين اطفالا يسلونه حتى يبدأون في طلب الكثير من الطعام ، وعندئذ يغضب فيلعنهم قائلا : « عجلوا واكبروا ايها الاطفال لقد حان الوقت لان تعملوا » . ويود لو ان يقلب اطفاله الى حيوانات اليفة ، ولكنهم يبدأون في العمل من اجل بطونهم ماطين حياتهم كقطعة من الكعك . ان الناس الوحيدين الجديرين بلقب « انسان » هم الذين يكرسون حياتهم من اجل تحرير عقل الانسان » (١) .

وقد ظلت عقد غوركي من الفلاحين الروس تطارده . ففي شبابه طرد مع فلاح ثوري (روماس) من احدى القرى لعدم اقتناع الفلاحين بمبادئهما الثورية ، وقد ظل يردد ان الفلاحين يتمسكون بالقيصر اكثر من اي طبقة اخرى ، لانه حررهم من ربقة النبلاء الروس . وفي « الام » لم تحرز الدعوة نجاحا يذكر بين الفلاحين بالقياس الى ثورية اهل المدينة .

والثوري بقدر واقعيته في « الام » ، الا انه لا يكترث لاشياء مادية كثيرة ، النقود مثلا لا تهم ، الطعام ، الملابس ... كل هذه امور مادية تترفع عنها شخصيات غوركي برومانسية . حتى الام نفسها بدأت تتغير بفعل تلك الافكار فتتعلم القراءة والكتابة وتشارك في الاعداد للثورة ، وتدوس كثيرا على عواطفها نحو ابنها في سبيل الانسان .

وابرز ما في الرواية ، الاصرار ، اصرار الانسان على العمل في داب من اجل المستقبل ، كما ان غوركي يحارب جهاز القضاء الذي يتولى عادة محاكمة المناضلين ، لقد حول غوركي قاعة المحكمة من محاكمة القضاء للمناضلين ، الى محاكمة المناضلين للقضاء ، وللنظام القيصري باكمله .

وكل شخصيات غوركي في روايته « الام » شخصيات راسخة تعرف طريقها تماما ونسير فيه بلا تردد ، ولا يثنيها شيء عن عزمها . انها شخصيات تعيش في الواقع حقا ، ولكنها تؤمن بفكرة عليا ، فكرة رومانسية ، من اجل الانسان الروسي ككل ، انها شخصيات تضحي بحريتها وبامنها وبارواحها في سبيل مثل اعلى .

***

وما ابعد الفارق بين « الام » وقصص غوركي الثلاث الاولى (١) « ستة وعشرون رجلا وفتاة » و « ايزرجيل العجوز » و « تشيلكاش ». ان « الام » رواية ناضجة ، لكاتب واع ، يعرف هدفه بالضبط ، ويسير اليه . اما قصصه الثلاث الطويلة سالفة الذكر ، فهي قصص من واقع نجاربه ، من واقع حياته في المخبز، وعلى ضفاف الفولغا، وبين الحمالين واللصوص . ولكنها لا تضم الهدف ، فقصته «ستة وعشرون رجلا وفتاة» قصة صارخة ساخطة على الظلم الذي يحكم به الانسان على اخيه الانسان من جراء النظام الرأسمالي . انها تصور العمل الشاق في المخبز ، كالسجناء في السجن يعملون ليل نهار بلا انقطاع ، في جو حار خانق تنعدم فيه التهوية ، يعجنون ويخبزون الخبز الابيض ، ويأكلون هم الخبز الاسود ، ولا يعرفون للحم طعما غير ما ينعم به عليهم صاحب المخبز « ونحن نعجن الدقيق ، ونصنع الكعك اليابس المالح . المعجون بعرق اجسادنا ، ونكره عملنا كرها ضاريا ، غير آكلين قط مما عملت ايدينا ، مؤثرين الخبز الاسود على الكعك المالح . » يعملون كالحيوانات اربع عشرة ساعة ، كما عمل غوركي من قبل في المخبز اربع عشرة ساعة في اليوم ، وينهارون نائمين بلا حركة الساعات المتبقية من اليوم . لا يتحدثون الا نادرا ، واغنياتهم كالعويل ، صرخات الم ، تنفجر بها حناجرهم بين الفينة والاخرى . ورغم هذه الحياة الكئيبة القاتلة ، فانهم جميعا يحبون بقلوبهم الطيبة وبحنانهم المخزون ، فتاة صغيرة خادمة في السادسة عشرة من عمرها ، يقدمون لها جميعا الكعك والخبز الابيض عن طيب خاطر ودون ما مقابل سوى الابتسامة البريئة ، والابتسامة .. كم يحتاجونها، ويشترونها ، يشترون سعادتهم، بابتسامة هذه الفتاة الصغيرة ، لم يمسوها بأي اذى ، لم يخدشوا حياءها باية كلمة جارحة ، ولكنها خيبت امالهم ووقعت في الرذيلة ، فبصقوا في وجهها ... وعادت حياتهم الكئيبة اكثر كآبة بدون هذه الابتسامة البريئة .

بينما « ايزرجيل العجوز » ، قصة اسطورية . انها حياته بين الحمالين البحارة ، على ضفاف الفولغا ، على صفحاته . لكنها خرافية، رومانسية ، لا تمت للواقع بصلة ، الا بافاصيص جدته التي حكاها لهؤلاء الحمالين والبحارة . انها قصة تحلق في سماء خيالية بعيدة عن الارض الروسية التي يضج سكانها بالشكوى من مر الحياة وقسوتها .

اما « تشيلكاش » ، فهي اول قصة طويلة كتبها غوركي بعد مطالبة الاديب الروسي « فلاديمير كورولنكو » له بان يكتب قصة طويلة بدلا من قصصه القصيرة المنسرعة التي غمرت الصحف الروسية آنئذ . وذكر غوركي انه كتب هذه القصة في يومين . ولا عجب ، فغوركي كاتب غزير الانتاج . ان « تشيلكاش » هو احد لصوص البحر ، الذين خالطهم غوركي صبيا ، بل شاركهم سطواتهم ... وتشيلكاش يسرق لكي يعيش ، ولانه ليس من المعقول ان يفني فواه مع عمال البحر ، كما فعل غوركي في شبابه ، ويحمل البضائع الثقيلة، ويقابل الجليد والامطار والعواصف، مقابل بضعة كوبيكات لا تكفي طعامه . ولكن تشيلكاش يعيش في داخله انسان شريف ، يرنو الى الارض الطيبة ، ويأمل ان يمتلك قطعة ارض في قريته ، يعيش من اجلها ويموت عليها ، ولهذا فقد ضحى بكل ما سرقه عن طيب خاطر لـ « جافريلا » المواطن الشريف الذي غرر به تشيلكاش ، واشركه في احدى سرقاته . لقد اعطاه كل مال الشركة ، رغم ان هذا حاول قتله ، اعطاه المال لانه قرر ان يعيش في القرية ويشتري ارضا ، ويتزوج . كم هي طيبة شخصيات غوركي الكادحة !!

***

و «فوما غورديف» (١٨٩٩) روايته الطويلة ، تصور حياة التجار، الطبقة الجديدة الناشئة من بين العمال والفلاحين ، والتي كونت

---

(١) ظهرت لرواية « الام » ترجمات عربية كثيرة ، اخصبها ترجمة دار اليقظة العربية بسوريا ، وترجمة مازن اللحسيني واسماعيل عبد الرحمن ، واليهما ترجع بعض العبارات المستشهد بها في هذه الصفحات، مع المقارنة بالترجمة الانجليزية للاصل الروسي .

(١) صدرت ترجمة عربية لهذه القصص الثلاث بقلم الكاتب اللبناني منير البعلبكي .

ثرواتها من السرقة والنهب والنصب ، ولما نالت حظها من الثروة ، تقمصتها روح البورجوازية ، انها طبقة مملقة ، طبقة جديدة ، تنبرأ من اصلها وتحاول بشتى الطرق ان تكون بورجوازية متوسطة . في هذه الرواية يشرح غوركي البورجوازية ، المتوسطة ، نشأتها ، وانتهازيتها ، وحياتها ككل .

« فوما » ابن لاحد هؤلاء التجار « جورديبف » الذين كونوا ثرواتهم من اعمال لا يقرها الضمير ، فقد كان جورديبف هذا مجرد عامل ينزح المياه من قاع الصنادل التي يمتلكها ثري روسي وكان يؤمن بان الشخص القوي هو الذي يتنصر على ضميره ، ويدوس عليه ليصل الى غايته ، انه شخص ميكيافيللي ، يصل الى غايته بشتى السبل ، ومهما تعارضت مع المثل والقيم والاخلاق النبيلة . وبهذا وصل بالعقل في سن الاربعين الى ما يبتغيه من رثاء وجاه ، « بغش الناس ، وخداعهم » . وقد انشأ جورديبف ابنه فوما على الايمان بمبادئه الانتهازية ، واحتقار العمال ، والبعد عنهم ، لانه سيدهم ومالكهم . ان جورديبف انسلخ من صفوف الطبقة العاملة وصار فوقها ، يمسك برقابها ، ويهلكها ليتزايد هو ثراء. واذا افاق « يفيم » احد عماله لينبه زملاءه الى هذه الحقيقة ، ان جورديبف يسمن ويثري من مص دمائهم ، وانه مصاص دماء ، يخرسه جورديبف بصفعاته . انها قصة تفضح انتهازية طبقة التجار ، الطبقة الخطرة الناشئة من تطور المجتمع الروسي من مجتمع اقطاعي الى مجتمع بورجوازي . وهذا شعار هذه الطبقة يذكره غوركي على لسان«جورديبف» قائلا لابنه « فوما » (1) : « يجب ان تعرف متى تستشعر الرحمة ... واول ما يجب عمله ، هو ان تنظر الى الشخص وماذا ينطوي عليه ، وما قيمته ، فاذا وجدت انه قوي وغني ، فلا بأس من ان تدركك الرحمة من اجله وان تبذل له المعونة والمساعدة ، اما اذا كان ضعيفا فابصق عليه وادر له ظهرك .. » ، وهكذا كانت تتعامل فئة التجار ، تلك الفئة الناشئة ، التي لا تؤمن الا بالحيل والالاعيب ، ولا تؤمن بالثقافة،فالكتب والتعليم للشحاذين فحسب .

وفي هذه الرواية قلق المثقفين في شخص « ليوبا » و «بيزهوف»، واحتقارهما للارستقراطيين ، فتقول ليوبا « اني لا يكاد يمر علي يوم حتى يتضح لي ان الحياة شيء شاق مرير . فانا مثلا ... ماذا يكون من امري ؟! اتزوج ؟! ومن ؟! تاجرا يقضي وقته كله في سرقة الناس ، وفي السكر ، وفي لعب الورق ؟ كلا .. ان هذا لن يكون ابدا ! » ان غوركي شخص قلق ايضا ، انه يعي تماما مساوىء الحياة الروسية ، ولكنه لم يعرف لها حلا حتى ذلك الوقت (عام ١٨٩٩) . لذا فانه يصرخ في هؤلاء التجار بلسان ليوبا ، محدثة فوما جورديبف : « انا اكرهك.. اكرهك انت بالذات .. انت ؟ من انت ؟ ومن عسى ان تكون ؟ شخص خرع لا يعرف شيئا في الوجود . ما الدور الذي سوف تؤديه في هذه الحياة ؟ وماذا في وسعك ان تقدم من خير للاخرين ؟ » . كل شيء في نظر التجار يجب ان يؤدي الى الكسب المادي ، الى مزيد من الثراء ، حتى عندما ينبرع جورديبف بخمسة وسبعين الف روبل من اجل الخير، لانشاء ملجأ للشحاذين والمتسولين ، انه يردد ان الكوبيك يعود اليه بروبل ، انها دعاية حقة ، تعود عليهم بالخير ، كل هذه التبرعات لتكوين رابطة بين التجار والادارة الحاكمة . والمديرون من هم ؟ انهم ملاك الاراضي المبذرون الذين لجأوا الى الوظيفة بعد بيعهم اراضيهم ... ان هذه التبرعات ليست الا من قبيل التطلع الى السلطة ، لتنال طبقة التجار الاثنين معا : « المال والسلطة » . ووسط هذه الدوامة من طمع التجار واحتقارهم للايدي العاملة ، تنطق «ليوبا » الفتاة المثقفة بافكار غوركي متفنية بحب الانسان ، مؤمنة بمستقبله ، منبهة الى الوضع الخاطىء للانسان الروسي في مجتمع القيصرية ، فتردد طوال الرواية : « اريد ان يحيا كل انسان سعيدا ... مستكفيا ... وان يكون الناس جميعا على قدم المساواة ... ان كل انسان يحتاج الى الحرية بقدر ما يحتاج الى الهواء ، ولا بد من المساواة في كل شيء » . وليوبا تؤمن بالكتب ، بينما التجار لا يؤمنون الا بالمال . وبيزهوف يظل يصرخ بضياع المثقفين في هذا المجتمع ، ويكتشف ان جمعيات الخير الاصلاحية المنتشرة في الروسيا ، ليست الا جمعيات « لقتل روح الانسان » وللدوس على كرامة الانسان « لقد سمموني باسم الشفقة الانسانية »، وكيف تكون القناعة في مثل هذا المجتمع الظالم ، « ان الشخص القانع بحاله ان هو الا خراج قنال في جسم المجتمع ... » وبيزهوف شمعة وسط ظلام القيصرية ودجل وانتهازية طبقة التجار ، الذين يجعلون روح المدينة كمستنقع مليء بالمياه الآسنة ، انه يؤمن بالمستقبل ، وبحتمية التطور الى حياة افضل ، حياة العمال والفلاحين . وها هو رأي «ليوبا» في « فوما » الابن الشرعي لطبقة التجار : « انت يا كاره البشر .. يا عدو الناس ! » .

واذا افاق « فوما جورديبف » الى الحقيقة المرة مكتشفا ضياع الانسان الروسي العامل والفلاح « انكم بدلا من تحسين احوال العالم والارتقاء به قد انحططتم به فجعلتموه شراكا وحفرة. قذرة لصيد ضحاياكم . انكم قد تكونون رجال عمال .. الا ان كل ما فعلتموه هو جمع القاذورات والدنس ونشر النتن والروائح الخبيثة ! اليست لكم ضمائر ؟ الا اله لكم ؟ اجل ... ان الهكم المعبود هو الذهب ، اما ضمائركم فقد استبعدتموها ، فاين استبعدتموها يا مصاصي الدماء ؟ انكم انما تحيون على حساب غيركم من الناس ، وانتم انما تعملون بايد غيركم . وكم من الناس ذرفوا الدموع من اعينهم دماء بسبب اعمالكم العظيمة التي تتبجحون بها ! » ، واذ يفضح ابن التجار حقيقتهم بهذا الصراخ العظيم ، ينقضون عليه بوحشية ويكبلونه بالقيود وينهمونه بالجنون ويرسلون به بالفعل الى مستشفى المجانين .

وقد اعدت هذه الرواية اعدادا مسرحيا وعرضت على مسرح موسكو في عام ١٩٠١ .

وقد اعجب « تشيخوف » ايما اعجاب بهذه الرواية ، وكتب اليه قائلا : « اطبع المزيد من الرواية ، لا اقل من خمسة الاف او ستة الاف ، انها ستباع كلقمة العيش . وبوسعك ان تطبع الطبعة الاولى والثانية معا » . وبلغ نجاحها شأوا عظيما . وذكر غوركي(١) أنه اجتمع باكثر من عشرة من ابناء التجار ، اصبحوا غير راضين عن حياتهم وطبقتهم ومهنة آبائهم ، وانهم متألمون من رتابة الحياة وافتقارها الى اي معنى ، وقال غوركي تعليقا على ذلك ان بعضهم سيبدد ماله في الفسق والعربدة بينما سيصبح البعض الاخر « غربانا بيضا » مثل « سافا موزوف » الرأسمالي الذي يساعد جريدة الثورة « الاسكرا » بنشر اعلاناته على صفحاتها . والامر الغريب حقا ان غوركي ظل يردد كراهيته لهذه الرواية في جميع رسائله لتشيكوف : « لست براض عن نفسي لاني اعلم باني استطيع ان اكتب خيرا مما فعلت . ان قصة « فوما جورديبف » من جميع الوجوه خطيئة فاحشة ارتكبتها ، وهذا ما يكدر صفوي » . (من رسالة الى تشيخوف في اول يوليو ١٨٩٩) (٢) ، وكقوله في رسالة الى تشيخوف ايضا في يونيو ١٨٩٩ : « اني في حالة نفسية مهيتة ، ومتعب الى حد فظيع ، وبصورة عامة لست على ما يرام . لقد اصبح « فوما » بطل رواياي ضربا من التهاس ، حتى لقد رأيته ليلة الامس في الحلم : راقدا في الوحل يشد على اسنانه ويصرخ غاضبا : « ماذا تصنع بي ايها الشيطان ؟ ما اصنع ؟ ساهشم له وجهه . »

وعندما ذهب غوركي الى ايطاليا وعاش فيها ، لم يلفت نظره سوى العمال ، الكادحين . وهذا واضح في مجموعة قصصه القصيرة «حكايات من ايطاليا » .

ففي قصته « الاضراب » يحكي قصة اضراب سائقي ومحصلي الترام في نابلي ، وثورة الجماهير الغاضبة عليهم وتدخل البوليس لاعادة

(1) On Literature - Selected articles - M. Gorky - p. 27-69 historicity

(٢) بين غوركي وتشيخوف ــ دار اليقظة العربية ــ ترجمة جلال فاروق الشريف .

(١) فوما جورديبف ــ ترجمة فقيد الادب العربي دريني خشبة.

تسيير العربات ولكن المضربين القوا بانفسهم على قضيب الترام ، وتساقطت بجانبهم الجماهير تمنحهم تأييدها ، ان الجماهير الغاضبة اصبحت تتساقط بمرح لتشد ازر المضربين ، واذ لم يتمكن الجنود من اعادة تسيير الترام فوق الاجساد البشرية ، ونجح الاضراب ، عادت الحياة الى مجاريها ودارت عجلات الترام .

وقصته « اطفال بارما » امتداد ايضا لفكرة الايمان بالاضراب . ان عمال بلدة « بارما » مضربون ، وقد طال اضرابهم دون ان يرضخ اصحاب الاعمال لمطالبهم . واذ امتد بهم وقت الجوع حتى اصبح يخشى على حياة اطفالهم الابرياء فقد ارسلوا بهم في قطار الى ميناء « جنوة »، وحيث يطل تمثال « كولمبس » مكتشف العالم الجديد ، على الجماهير المتلهفة لتلقي الاطفال . وقف القطار ، وتخاطف المنتظرون الاطفال بحب ومرح ، وارتفعت صيحات الايمان بالمستقبل ، « تحيا ايطاليا » ، « يحيا غاريبالدي » ، « يحيا ابطال بارما » . انها لمسة انسانية ، بقدر ما هي دافع قوي للجماهير المتطلعة الى مستقبل افضل ...

ويتضح من هاتين القصتين مدى حب غوركي للشعب الايطالي ، وايمانه بنضاله وبروحه المرحة ...

وقصته بعنوان « ازهار » ، لوحه تصويرية رائعة تمثل الحياة على الشاطىء الايطالي ، واني اميل لتسميتها لوحة اكثر منها قصة قصيرة لعدم استيفائها شروط وشكل وبناء القصة القصيرة .

اما قصته « النفق » فليس بها اي اثر لايطاليا ، انها قصة انسانية حقا يمكن ان تحدث في كل مكان من ارضنا ، قصة شيد بقدرة الانسان، وسطوته على الطبيعة ، قصة العمال الكادحين الذين آمنوا بقدرتهم البشرية ، فراحوا ينحتون الجبل ، غير آبهين لصخوره ، او للخرافات التي يشيعها جيل آبائهم واجدادهم عن العالم السفلي .

انها قصة متسقة مع الخط الادبي والفلسفي لمكسيم غوركي .

***

اما قصته الطويلة « مخلوقات كانت بشرا » فهي قصة المشردين التعساء الذين كانت تعج بهم الروسيا ، والذين كان غوركي نفسه واحدا منهم ، وقد حكم حياتهم وصورها فعلا كفرد عاش حياتهم ، فبين مدى الفاقة التي تطبع حياتهم بطابع الحرمان من كل شيء ، حتى من ادميتهم، وهذا واضح من اصراره على اطلاق اسم « مخلوقات كانت بشرا » عليهم، وهم رغم كل بؤسهم وحرمانهم من ابسط مظاهر الحياة الادمية ، من المأوى والمأكل .. ورغم كل ذلك يعيشون ليومهم بلا هموم ولا مشاكل معقدة .. وقد كان المشردون اولى الفئات التي لعبت دورا اساسيا وصارت محورا هاما تدور حوله كتابات غوركي الاولى ...

وقد حلل غوركي الاسباب الدفينة الدافعة الى قسوة الحياة الزوجية في القصة الطويلة « الزوجان اورولوف » ، اورولوف الاسكافي البسيط الذي تقاسمه زوجته « ماترينه » شظف العيش في قبو تنعدم فيه النهوية وتفوح فيه رياح العفونة والقذارة . انهما يتبادلان الحب ، ورغم ذلك فانه لا يكف عن ضربها بعنف ، وهي ايضا تزيد من حدته وتعانده ، فتستفزه ليعاود ضربها ، ثم يعود قلبه الطيب فيقبلها في ود وحب .. وقد أوضح غوركي بصراحة ان مرجع هذه القسوة ، انما هو عائد الى قسوة الحياة ذاتها ، الى العذاب الذي يعانيه اورولوف في سبيل اعالة زوجته .. الى انعدام اي هدف مشترك ، الى الحياةالقذرة البائسة الفارغة التي يعيشانها .

ولكن الكوليرا التي تحمل الموت الى الناس في روسيا ، تحمل معها العمل والنظافة للزوجين في مصحة ، يصارعان فيها الكوليرا وينتزعان الحياة من براثنها المحكمة على ارواح المرضى .

ان النقود والنظافة والاكل الجيد أوجدت لهما هدفا افضل في الحياة . لذا فقد كفت الحياة الزوجية عن قسوتها ، وامتنع الزوج عن ضرب زوجته ، واصبح لكل منهما عمل بعيد عن الاخر ـ رغم وحدة المكان ـ الا ان ضميره مستيقظ . انه يربح من موت الاخرين ، انه يفقد في كل يوم صديقا له بين يديه ، انه يود لو كانت الكوليرا رجلا فيقتلها ، مع يقينه بان في ذلك القضاء على مصدر الرزق الوفير نسبيا بالنسبة الى حياته المعدمة السالفة ، ان ضميره يعذبه ، والموت يخطف من بين يديه اصدقاءه ومعارفه ، وعادت الخمر تسلبه وعيه ، وعاد يضرب زوجته، ولكنها اصبحت انسانا اخر ، انسان كادح له حقوق ، ويابى المذلة والاهانة والضرب ، لذا فقد افترق الزوجان ، كل في طريقه . لقد عرف غوركي بحق مصدر الشقاء الانساني ، في عذاب الحياة وبؤسها .

***

آمن غوركي بالاشتراكية لخير الانسانية ، لا لقيدها ، وهاجم رجال الدين ، تجار الدين من اجل الدين ، وحبا في الله وفي الشعب ، وكان هذا الايمان المطلق بالله وبالشعب ، هو مصدر قلق لحفظة النصوص الاشتراكية وعبدة الاوثان ... وايمان غوركي بالله بوجوده وقدرته وتجرده ، واضح في كل كتاباته، ولعل اقاصيص جدته الدينية وتراتيلها، حفرت في اعماقه وقلبه هذا الايمان بلا مزعزع له . ان غوركي يعرف ان الله خلق الانسان وترك له ارادته ليختار الخير والشر ، وان الشر والشيطان موجودان في نفوس البشر المستغلين والمسيطرين ، ورجال الدين هم الذين يستغلون الدين استغلالا سيئا ببث تعاليم مغرضة بين صفوف الشعب لصالح الطبقات المستغلة ، التي يدخل بينها حتما كبار رجال الدين انفسهم ، بمصالحهم الطبقية . وفي روايته التي نقلها الى العربية اديب المهجر « نظير زينون » بعنوان « اين الله ، او اعترافات ابن الشعب » (1) يقول على لسان « لاريون » : « لا ينبغي ان تتكلم عن اعمال الشيطان وانما عن القسوة والعنف ، الخير والشر هما في طاقة البشر ، اذا اردتم الخير فارادتكم تأتي بالخير ، واذا شئتم الشر ، فمشيئتكم تنسج الشر ، الخير مصدره انتم ، والشر مصدره انتم ، وذلك لان الله لا يرغمكم على اقتراف الشر او صنع الخير ، لقد خلقكم بارادته احرارا مستقلين ، واحرارا مستقلين تصنعون ما يحلو لكم ، اما الشيطان شيطانكم الذي تتحدثون عنه فهو البؤس ، نعم هو البؤس والجهل شيطانكم هو ظل الشريعة العاتية المستبدة في القلوب! ان الخير انساني، لان الانسانية مصدرها الله ، أما الشر فلا يأتي عن الشيطان ولكن عن الحيوانية ، اتعلمون لماذا يصورون الشيطان بقرنين ورجلي ماعز ؟ ذلك لانه مبدأ الحيوان في الرجل ! ... » .

ورواية غوركي هذه تعد استعراضا لاراء فلسفية ، لتأملات داخلية، في الحياة وفي الخير والشر ، ان غوركي يغوص هنا في النفس محللا ، اكثر منه كاتبا روائيا يحكي قصة تخدم كل سطر فيها غايتها ، انه يعاود ما فعله الفيلسوف اليوناني العظيم « سقراط » عندما التقط الحكمة اليونانية « اعرف نفسك بنفسك » من على مدخل معبد دلفي ، ليتخذها محورا لفلسفته .

وها هو غوركي يبدي رأيه في رجال الدين على لسان « لاريون » :

---

(1) « اين الله او اعترافات ابن الشعب » ـ نشر دار اليقظة العربية بسوريا .

قريبا :

« الطريق الاخر »

خطوة جريئة في اسلوب الرواية العربية الحديثة

بقلم : سعيد فرحات

« .. ان الكاهن ورئيس الشرطة يستحقان الزج في السجن جزاء هذه الخديعة ، انهما لم يتورعا عن خدمة مصالحهما ونفوذهما تحت نقاب ديني ، وقاما يوطدان اركان الدين في قلوب البشر ارضاء للمنافع الشخصية ! .. »

وانه ليرى « ان الموت سر مجهول ايضا ، وانا ابحث عن حل اسرار الحياة » .

انه يتهم رجال الكنيسة باقتسام سرقة ونهب اراضي الفلاحين : « قال لي الكاهن : حموك وانت لصان خبيثان لقد سرقتما الكنيسة وانتزعتما منها « حقل الاجارو » مع ان هذه الارض تخص الابرشية على ما يعلم الجميع وقد عاقبكما الله عقابا شديدا وانزل بكما البلايا جزاء هذه السرقة . فرددت كيده الى نحره وقلت : هو ما تقول ، ولكن اذا كنا قد انتزعنا الحقل ظلما وعدوانا ، فانت قد سبقتنا الى السرقة ، كانت الارض ملكا للشعب ولكنك انت ضممتها الى الابرشية وغصبت حقوق الفلاحين ... » .

انها رواية اشبه برباعيات عمر الخيام ، كاعترافاته ، كخطياه ، كتوبته ...

« ان البشر يجزئون الله اجزاء مختلفة طبقا لحاجاتهم ، وميولهم. فالله عند البعض صالح كلي الرحمة ، وعند سواهم قاس وظالم ، اما الكهنة فقد جعلوا من الله خادما لهم ، واذا شكروا له ما منحهم من سعة العيش والرفاهية فبحرق البخور ، ولاريون وحده كان يرى في الله عظمة لا تحدها العقول ولا يدركها الاذهان ... » . وفي بحثه عن الطريق الى الله ، الى الخير والحق ، لجأ الى احد الاديرة ، فماذا وجد : « ... ورأيت ايضا ان ادارة الدير لا تختلف عن ادارة احدى المزارع او الاملاك ، رأيت في الدير كل انواع المتاجر ، فالحطب يباع والاراضي تؤجر ، والخراج يجبى على الصيد في البحيرة والفواكه والبقول تعرض للبيع ... الخ. ، وكان في اصطبل الدير ثمانية عشر حصانا ، اما عدد الاخوة فيبلغ مائة وخمسين، اغلبهم احداث ومجتهدون، اما الكهول فقليلون وهم كذر الرماد في عيون الزوار والحجاج ، وكان الرهبان يشربون المسكرات ويغازلون النساء ويلهون ، فالاحداث يتسللون ليلا من الدير الى القرية ، والطاعنون في السن يستقدمون الصبايا الى مخادعهم بحجة الغسيل ، ولا جدال ايضا في انهم يتمتعون ببعض الزائرات ... » .

صدر حديثا :

الأرض يا سلمى

مجموعة قصص بقلم :

محمد عبد الولي

اول مجموعة قصص يمنية تصور المجتمع اليمني وترهص بثورته المجيدة

دار الاداب

في حياة غوركي شيئان اساسيان ، الناس والكتب ، فان حياته بين الناس في الحضيض ، ومطالعاته الواسعة للكتب هي التي جعلت منه ذلك الاديب العالمي ... وقد مرت في بداية حياته اوقات كان يقضي فيها الليل ساهرا حتى الصباح منكبا على القراءة في ضوء شمعة يتراقص بوهن ، ومع ذلك فلم يكن يقرأ سوى الروايات التافهة التي تغزو عالم الجنس ، بكل فخر وشوق . وقد اسف غوركي فيما بعد لهذه القراءات التافهة غير المنظمة ، ولعل هذا ما جعله يصور « فرانكا اوليسوفا » بطلة قصته الطويلة بهذه الصورة الصادقة ، التي صادفها في حياته عند زوجة الخياط الفاتنة التي اعارته تلك الروايات العاطفية الجنسية ، وعند سيدة راقية خلفتها في اعارته الكتب ، ابان عمله خادما في احد المنازل .

ان « فرانكا اوليسوفا » فتاة رائعة الجمال ، ابنة كولونيل، يمتلك مئات الافدنة من الاراضي افسدتها الروايات الفرنسية التي خلقت في مخيلتها صورا عجيبة للبطولة ، « ان المجرمين في الروايات هم الذين يلذون لي جدا ، اولئك الذين يحبكون بطريقة لبقة كل انواع شباك الغدر والوقيعة ، يقتلون ويدسون السم ، انهم اذكياء اقوياء...وعندما يقبض عليهم في النهاية يتملكني الغضب ، حتى ان الدموع تطفر احيانا من عيني . العالم كله يكره اللص ، العالم كله ضده ، وهو ضد الكل ! هاك بطلا ! اما الاخرون اصحاب الفضيلة ، فيصبحون مقتاء ساعة ينتصرون ... »

انها من النبيلات الروس الحق التي تتباهى بضرب خادمها العجوز بالسوط ، ولا نرى في ذلك الا عملا فاضلا ضروريا لحياته ، انها لتحتقر الفلاحين ، لانها تضيق بطلباتهم الكثيرة ، انها تحتقر الكتاب الروس لانهم يقولون الحقيقة ، وما حاجتها الى الحقيقة ، انها تريد ان تعيش في روايات تبعدها عن الحقيقة ، روايات غريبة ، بوليسية ، جنسية ، انها تريد ان ترى شواذ الناس ، انها لا تؤمن لا بالحب ولا بالخير .

وايبوليت الاستاذ الجامعي المثقف الثوري ، الذي يؤمن بنقيض ما يؤمن به فرانكا بحكم نشأتها الطبقية يحاول جاهدا ان يصل معها الى اسس للمناقشة الى الحقيقة ، بلا فائدة . انه يحاول ان يبين لها المسلمة بان الناس متساوون في الحقوق والواجبات ، ولكنها ترفضها بعنجهية ارستقراطية « الموجيك (الفلاح الروسي) هو الذي يجب ان يعمل ، وانت عليك ان تعلم ، والحاكم عليه ان يراقب الناس ليرى ما اذا كان كل واحد منهم يقوم بما يتوجب عليه ... لقد قلت ان الصالح العام هو ان يتساوى الناس جميعا ، هذا غبن ! والدي الكولونيل،كيف يكون مساويا « لنيكون » الموجيك ؟! » (١) .

ويخيل لمن يطالع هذه السطور انها رواية نقدية خطابية . ولكن الحقيقة ان غوركي حاك هذه المناظرات الرائعة في ثوب ادبي بديع ، وفي وصف دقيق لحياة الارستقراطية « فرانكا » اشبه باهتمام « اميل زولا » و « انطون تشيخوف » بادق التفاصيل . ان الصنعة الروائية في هذه الرواية قد حيكت بفن عظيم . لقد شرح غوركي بفنه العظيم هذا ، الارستقراطية الروسية ، وبين مدى احتقارها للشعب ، لقد اغمس روح الفنان ليخرج عملا روائيا في صالح الثورة ، ولخير الشعب. ان فرانكا وايبوليت ، لم يلتقيا في نهاية الرواية ، رغم كل امكانيات اللقاء العاطفي ، ولكن غوركي بصدق الفنان رأى ان ذلك مستحيل .ان فرانكا ابنة مخلصة لطبقتها ، وللنظرة الطبقية الضيقة التي تتباهى بجلد الشعب واحتقاره . لقد حاول « ايبوليت » ان يخرجها من عالمها الضيق الضجر ، ولكنه اخفق ، لان غوركي اراد ذلك ، اراد ان يبين ان الارستقراطية الروسية ستظل بمنأى عن اية محاولة فكرية لاقناعها بالتنازل عن امتيازاتها . ان المستقبل بيد « ايبوليت » ، بيد الذين يؤمنون بالناس البسطاء ، بالمساواة ، والحرية ، والثورة كطريق لنيلها .

القاهرة

احمد محمد عطية

---

(١) فرانكا اوليسوفا ـ ترجمة الاديب السوري : حنا مينه .